الصلاة وأسرارها الخفية

استهوت العاجلة أقواما فعبدوها ، وشغلوا بها عن التدبر في ملكوت السماوات والأرض بعين البصيرة والتأمل والنظر فيما يملأ النفس عظة والقلب وجلا من لقاء الله تعالى ، ونسوا معادهم الى بارئهم فعموه فاحتجبوا في ظلمة المعصية عن إشراق نور الحق جل جلاله .

وليس من سبيل إلى دفع فتنة الدنيا إلا بادامة ذكره تعالى حتى تنعقد القلوب على محبته ، وحتى تستشعر النفوس الخوف من سطوته ، فيضعف سلطان الشهوة ويقترب من مولاه بقدر ما يدع من شهواته (ولهذه الغاية السامية شرعت الصلاة ، وكانت أقدس عبادات المسلمين ، وأقوى أركان دينهم الحنيف ، ولا غرو فانها لها في جلاء القلوب ، وتزكية الأرواح ، وصقل النفوس ، وتهذيب الجوارح ، أثرا لا تدانيه فيه سائر العبادات الأخرى ، وهي الواسطة بين العبد وبين ربه ، تدنيه منه أو تقصيه عنه ، على حد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله تعالى إلا بعدا »

وعندي أن العبد إذا واظب على الصلاة ، كما أمر بها المشرع — وعلى النحو الذي سنوضحه — أربعين يوما فقد فجر الله ينابيع الحكمة في قلبه ، وفاض على قلبه نورا يضيء له ما غاب عن حسه وخفي عن شعوره من العوالم المحجوبة والأسرار المكتومة وغير ذلك مما يخص الله به عباده المتقين .

شرع الله الصلاة ، وجعلها خمس مرات في اليوم لحكمة روحية سامية ، وأشار في التنزيل الحكيم إلى سرها ، فقال جل شأنه « وأقم الصلاة لذكري »

والذكر المراد في هذه الآية هو أن يدخل العبد في صلاته ممتلىء القلب بعظمة الله وجلاله ، مفرغ الرأس خاشع الجوارح ، مفرغا نفسه من هواجس الشيطان ، وشواغل الدنيا ، عالما أنه في مقام المناجاة لرب العالمين فيتأدب ، ذاكرا بوقفته هذه وقفة يوم العرض على الديان فيخشع ، وعند ذلك تسبح روحه في مقام علوي وتطير نفسه شوقا إلى القرب من الله العلي .

ومع كل ركن من أركان الصلاة معنى يستحضره القلب ، فحين يقول المصلي : الله أكبر ، يشعر قلبه بأن الكبرياء هو لله وحده ، وكل الملائك كبيرها وصغيرها حقير بالاضافة إلى كبريائه عز وجل ، وبعض العباد وقت التكبيرة ، كانت روحه تسبح فيما خلق الله من عوالم

الانس والجن ، والملك والطير والبهائم وغيرها ، وكلها تسبح لله بكل لسان ، وتقدسه وتقر له بالكبرياء المطلق ، فيعترف إذ ذاك لله بالكبرياء والحق ، ثم إذا أخذ يقرأ ، علم من يناجي وبين يدى من يقف ، وكلام من يقرأ فيتأدب ، فاذا قال مثلا : الحمد لله رب العالمين ، استحضر فى قلبه ما استطاع من نعم الله عليه وحمده عليها ، وإذا قال : الرحمن الرحيم ، تذكر رحمة مولاه ، ورجا وصولها إليه ، وإذا قال : مالك يوم الدين ، ذكر العرض والحساب ، حيث لا نجاة إلا لمن جاء ربه بقلب سليم.

وأعلى مراتب العبادة فى هذا الباب هو ما بلغه سيد الأنام نبينا صلوات الله عليه من فرط الخوف وشدة الخشوع ، فلقد حدثت عائشة رضى الله عنها قالت : «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدثنا ونحدثه فاذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه اشتغالا منه بعظمة الله عز وجل » وثبت أنه صلى الله عليه وسلم كان كثير البكاء فى صلاته من شدة استشعار قلبه سطوة الله وجلاله . ويروى أن ابن زرارة رضى الله عنه أم قومه فى الصلاة ، فقرأ قوله تعالى «فاذا نقر فى الناقور فذلك يومئذ يوم عسير» فسقط على الأرض فحملوه ميتا. ويروى أن مسلم بن يسار كان يصلى يوما فى جامع البصرة فسقطت ناحية من المسجد فاجتمع الناس لذلك فلم يشعر به حتى انصرف من الصلاة ، وكان على بن أبى طالب رضى الله عنه إذا حضرت الصلاة يتزلزل ويتلون وجهه فقيل له ما لك يا أمير المؤمنين فيقول جاء وقت أمانة عرضها الله على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملناها ، ويروى عن على بن الحسين أنه كان إذا توضأ اصفر لونه فيقول له أهله ما هذا الذى يعتريك عند الوضوء فيقول أتعرفون بين يدى من أقوم .

فليتهيج كل مسلم هذا التهيج من الصلاة رافعا عن نفسه خواطر الغافلة وهمزات الشيطان ، حتى يستشعر لذة مناجاة الله الذى يفوز بالقرب منه جل شأنه.

وما أجدرنا نحن رجال التعليم الالزامى وأمر تعليم النشء العبادة من أساسها موكول إلينا ، أن نغرس فى نفسه نواة الصلاة الصحيحة الخالية من التفكير فى أمور الدنيا وذلك الخشوع لله فى أبسط صورة تتحملها عقليته حتى يكبر على العبادة الصحيحة .

محمود عيسى عبده

مفتش بمدرسة سيدى جابر الالزامية